ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

THE HISTORIC AND ARTISTIC VALUE IN THE COLLECTION OF AL HAMASSIYA BY ABU TAMMAM

Dr: Abbo Souleymanou

Université de Maroua
Rep. du Cameroun

* *Corresponding author: E-mail* :
abbo.lawana@gmail.com

00237691024372

***Keywords*:**
Abbasid period
artistic value
AL-Hamassiya
development
innovation

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 1 Mar. 2020
Accepted 9 Nov 2020
Available online 2 Mar 2021
E-mail
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

A B S T R A C T

The Abbasid period experienced the greatest cultural renaissance in the history of Arab-Islamic civilization with an influence on different cultures including: Persian, Indian and Greek cultures as well as their translation and fusion with Arab culture constituting the melting pot of the Arab-Muslim civilization. It constituted a new civilization for those cultures. Poetry has been influenced by this renaissance and has experienced a remarkable development in many aspects.Among the results of this literary renaissance, there is "*Le recueil d'AL-Hamassiya*", one of the splendors of our literary heritage, which distinguishes itself from others by its values, the pleasure and the interest of its contents, its linguistic, the artistic and historical richness, and the ideas it generates. Hence the subject of this research, which revolves around the spirit of *Hamassiya*, its artistic and aesthetic participation in the efforts made to serve this heritage. Our modest contribution is to reveal the hidden aspect of this literature and its different outlines.This work aims at probing certain aspects of the development and renewal of Arab poetry. As the author of the collection Abu Tammâm is a unique and singular icon in his style and imagination, he inspired many of his successors with his style, imagination and creativity.In addition to the introduction and the conclusion, this research is articulated around three essential points namely the definition of the poetry of Abu Tammâm, the presentation of the historical value of the enthusiasm and the highlighting of the artistic role of *Hamassiya*, by placing particular emphasis on linguistic, rhetorical, aesthetic, emotional and musical values.We have used the analytical and descriptive approach when studying the texts, with reference to the historical method and relying, to some extent, constituting the most complete approach for this type of study.

© 2021 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.28.3.1.2021.06

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

القيمة التاريخية والفنية في حماسية أبي تمام

د.أبُّو سليمانُو /جامعة مرْوَا / جمهورية الكاميرون

الخلاصة:

وقد شهد العصر العباسي أكبر نهضة ثقافية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بتأثير العكوف على الثقافات المختلفة . فارسية، وهندية، ويونانية . وترجمتها، وانصهارها مع الثقافات العربية في بوتقة الإسلام؛ الذي أصبح حضارة جديدة لتلك الثقافات، وقد تأثر الشعر بهذه النهضة فتطور تطوراً ملحوظاً شمل الكثير من جوانبه.

فإن التراث بحر زاخر بالعطاء الفكري ونبع فياض بالإبداع الأدبي والعلمي، وإذا أحسنا المداخل إليه، وقلبنا النظر فيه في ضوء المعارف الإنسانية الحديثة وقفنا على العجب العجاب من أسراره وروعته، ودقائقه ولطائفه، ولأفدنا منه كثيرا في جوانب حياتنا الأدبية والفكرية والعلمية والفنية.

ومن روائع تراثنا الأدبي ديوان الحماسية الذي يتميز عن غيره بما يحوجه من قيم، وما يتضمنه من متعة وفائدة، وثروة لغوية وفنية وتاريخية، وما يثيره من أفكار، ويبعث من همم، ويفتح منافذ للبحث، وبما بفجره من طاقات إبداعية في دنيا الأدب والنقد والعلم والمعرفة... ومن هنا كان موضوع هذا البحث الذي يدور في فلك ديوان الحماسية وقيمته التاريخية والفنية بغية المشاركة في الجهود التي تبذل لخدمة التراث، وإسهاما منا في كشف مخبأته، واستجلاء ظواهره.

المقدمة:

يعد "حماسية" أبي تمام، أهمَّ اختيار شعري في التاريخ الأدبي، إذ حفظتْ كثيراً من شعر الشعراء المقلين والمجهولين في التاريخ الأدبي..

وأبرز شعرُ الحماسيةِ الكثير من القيم الإنسانية والعربية، مثل: الشجاعة، والمروءة، والصبر، والكرم، والتعفف. فلا عجب أن يقول بعض النقاد القُدامَى: "إن أبا تمام في اختياره الحماسية، كان أشعرَ منه في شعره". ويحلو لبعض القدامى، أن يسمي هذا الديوان، الذي جمع آلاف الأبيات من الشعر العربي، بـ"الحماسة الكبرى"، ولأبي تمام تجميع شعري اسمه "الحماسة الصغرى" (كتابُ الوحشيات).

لم يرصد أبو تمام في "ديوان الحماسة"، أعلام ومشاهير الشعراء، كما تفعل الغالبية في عصره، بل تناول كل من كتب في موضوعه، ألا وهو الحماسة، كما أنّه لم يفصل بين عصور الشّعراء، معتمداً في ذلك على أن يبحث عن المعنى لا عن العصر، كما يلاحظ أنّ عدداً كبيراً من شعراء الحماسة ينتسبون لقبيلة طيء التي ينتمي إليها الشّاعر.

ونتبين من ديوان الحماسة، أن اختيارات أبي تمام فيه، تعبر عن الذوق الفني، إذ يقتطف مقاطع من القصائد التي تجمع إلى حُسن المعنى، جزالة اللفظ حيناً، وجمال التشبيه حيناً آخر، بينما تميز ما كان يكتبه من شعر، بعمق الفكرة وقوة اللغة. وهو ما حيّر الباحث النقدي في تلك المفارقة بين اختياراته وأشعاره، حتى قال أحد النقاد: أبو تمّام في حماسته أشعر منه في شعره!

ولديوان الحماسة أهمّيّة كبرى بالنسبة للباحثين عن كنوز الشِّعر العربي، كما يحوز قيمة وأهمية أخرى بالنسبة للباحثين عن المعاني، وأجمل ما قيل في هذا الشأن، انتهالها من ينابيعها الأولى، وذلك لما يحويه الكتاب من درر المعاني وكنوز الألفاظ. كما أن الكتاب مادّة أوّلية لمن يريد دراسة الشّعر العربي بجميع أغراضه من جهة، ولدراسة المجتمع العربي من خلاله من جهة أخرى، مثل: (الحياة الجاهلية، الفنون الشِّعرية، وأشعار الطائيين، تطوّر الشِّعر بين الجاهلية والإسلام، وصف الخيل أو الحرب).

ومن خلال الصفحات التالية، سوف أحاول رصد مظاهر التطور والتجديد في القصيدة العربية، فشاعرنا

أبو تمام: صنف فريد من نوعه، فكان مجدداً على فنّه، غريباً في طريقه، مجدداً في صناعته، وشأن الجديد في كل زمان أن تعتوره الألسن والأقلام بين مادح وقادح وهكذا كان حال أبي تمام. فهو مجدد حتى في الموضوعات التي يكون فيها الشاعر إلى التقليد كالمقدمات الطللية، وقد ارتفع حظه من هذا التفكير المنظم لارتفاع حظه من القدرات العلمية والفنّية، فانعكس هذا على قدرته الإبداعية المبتكرة التي تجلّتْ في تأليف كتبه، الحماسية وغيرها.

وقد جاء هذا البحث في: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة. تحدثت في المبحث الأول عن التعريف بأبي تمام بإيجاز، وفي المبحث الثاني تحدثت عن القيمة التاريخية للحماسية، وفي المبحث الثالث تحدثت عن القيمة الفنية للحماسة.

هذا وقد اتبعت المنهج التحليلي عند دراسة النصوص، كما سلكت على المنهج التاريخي في دراسة حياة الشاعر، بما يمكنني أن أزعم أنني اعتمدت بشكل أو بآخر على المنهج التكاملي، حيث رأيته أوفى المناهج لحمل أعباء الدراسة في أقسامها المختلفة.

فهذه لبنة في صرح تراثنا الأدبي الشامخ، وثمرة من ثمار قدر لها أن تتر عرع في رياض الحماسة، وتزهرفي واحة القيم الخلقية والإنسانية العليا، فإن كنت قد قصرت فمن عندي وما أبرئ نفسي، وإن كنت قد وفقت فمن الله وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول: التعريف بالشاعر(*)

لست هنا في مقام البحث عن أبي تمام وشاعريته، حتى أستعرض الآراء التي دارت حوله وتناولت شعره، ولكنني هنا في مقام البحث عن القيم الفنية والجمالية في حماسيته، ولذا فإنني سأقصر تعريفي بأبي تمام عن: نسبه، ومولده، ووفاته، وعلى أهم الروافد الثقافية التي جعلت منه شاعرا ومبدعا وإمام مدرسة في شعر العربي، لما لها من علاقة وثيقة بموضوع هذا البحث.

أوّلاً: نسبه: هو حبيب بن أوس، بن الحارث، بن قيس، بن الأشج، بن يحيى بن مروان، بن مرّ ابن سعد، بن كاهل، بن عمرو، بن عدي، بن كهلان، بن يشجب، ابن يعرب بن قحطان، الشاعر المشهور بأبي تمام الطائي، نسبة إلى طيء، وهي القبيلة العربية المشهورة، وأحد أعلام الشعر في العصر العباسي، وقد شاع ذكره، وسطع نجمه، وانتشر في الآفاق خبره، وارتقى به فنه الأدبي حتى أجلسه على رأس مذهب المجددين في الشعر العربي.

ثَانِياً: مولده: ولد أبو تمام بقرية "**جاسم**" على الطريق بين دمشق و "طبرية" سنة: 172هـ، ونشأ في دمشق"[1]. وأقام بمصر شابا، يافعاً، مدة خمس سنوات، ثم تركها في سنة: 198هـ، إلى دمشق، ثم يتركها إلى بغداد فيكون فيها سنة: 200هـ، وهكذا تتوالى سنوات حياة أبي تمام في شيء من الاستقامة والوضوح.

– لقد كان أبو تمام عاشقا للأدب راوية له، حافظا للشعر، فقد حفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات، ولم يقل الشعر قبل أنْ يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء فضلا عن الرجال. وقد

أحاط نفسه بثقافة عربية، صرفة فقد كان راوية عن كثيرين، وفي الوقت نفسه تتلمذ على التراث العربي . شعرا ونثرا . بروية وفهم [2].

وهكذا كان لأبي تمام منزلته في الشعر والعلم به، وقد كان لهذا أثره في اختياراته، ومن هنا كانت حماسة أبي تمام ثمرة هذه الموهبة وذاك العلم بقديم الشعر وجديده، وجيده ورديئه، والغوص في أعماق التراث الأدبي، واصطياد لآلئه ودرره التي ضمتها دفتا الحماسية.

ثَالِثاً: وفاته: وقد توثقت الصلة بين أبي تمام وبين الحسن بن وهب كاتب من ابن عبد الملك الزيات فولاه بريد "الموصل"، غير أن حياته لم تمهله فلبى نداء الحق سريعا، وكما اختلف الرواة في نسبه ومولده اختلفوا . أيضا . في سنة وفاته، وأرجح الأقوال وأقواها اتساقا مع حياته، أنها أواخر سنة: 231هـ ودفن في "الوصل"[3].

المبحث الثني: القيمة التاريخية للحماسية:

تعد حماسية أبي تمام مصدرا خصيبا من مصادر تاريخنا العربي، بما اشتملت عليه من شعر يمثل تاريخا صادقا للحياة العربية، بحياتها المختلفة: الاجتماعية، والحربية، والخلقية، والفكرية، والأدبية، والفنية، وما تحمله بين طياتها من ملامح مميزة لهذه الحياة.

كما تعد الحماسية سجلا وثائقيا لكل القيم والمثل التي كانت مصدر اعتزاز وافتخار وإجلال وإكبار للإنسان العربي. وكما تمثل الحماسية بُعْدين: بعدا موضوعيا، وبعدا فنيا، فالبعد الفني سنتحدث عنه . إن شاء الله . في المبحث التالي، أما البعد الموضوعي فيتصل بالمجتمع وبآلاته وبالعالم المحيط بالشاعر، ومن هنا كانت الحماسية بمثابة انعكاس لرؤى اجتماعية تتصل بالواقع الذي عاشه الشاعر، فهي تاريخ لهذا الواقع بكل مفرداته وظواهره، وتصوير دقيق لكل جزئياته ودقائقه.

لما كانت الحماسة ترجع في معانيها إلى معنى مركزي في الشعر العربي هو: الشجاعة أو البأس، فإنّ الشعراء يعمدون في المقاطع الحماسيّة، إلى توسيع معنى الشجاعة وتفصيله وتوليد معاني جديدة ومتنوعة منه. ويتمّ ذلك عبر الإلحاح في تصوير المشاهد الحربيّة وإطالة اللوحات الوصفية. فيقيم الشاعر في صلب القصيدة وحدات سردية تكوّن متى جمعناها، ما يمكن تسميته بنواة قصصيّة حربيّة، تتوفّر فيها عناصر القصّة المعروفة من شخصيات وأحداث وأمكنة وأزمنة. وتتعلق هذه اللوحات برصد أعمال القادة والجيوش. وفي هذا السياق تقوى الوظيفة الإخبارية التاريخية في صميم القصيدة أو يعمل الشاعر على الإيهام بذلك[4].

<u>فإذا أردنا أن نؤرخ لمكانة المرأة</u> في المجتمع العربي وطبيعتها مثلاً، كانت الحماسية مصدرا أصيلا لهذا التاريخ، فقد تبوأت المرأة العربية مكانة عظمى في حياة الرجل العربي، فهو يخوض الحروب ويستبسل ويستخف بالموت في سبيلها، وتطالعه صورتها في ميادينها فتزيده شجاعة وبسالة وإقداما، يقول سوار بن المضرب السعدي[5]:

فَلَوْ سَـأَلَتْ سرَاةَ الْحَيِّ سَلْمَى عَلَى أَنْ قَدْ تَلَوَّنَ بِي زَمَانِي
لَخَـبَّـرَهَا ذَوُو أَحسَابِ قَومِي وَأَعْـدَائِي فَـكُلٌّ قَـدْ بَلاَنِي
بِـذَبِيّ الذَّمَّ عَنْ حَسَبِي بِمَالِي وَذَبُّـونَـاتِ أَشْوَسَ تَيَّحانِ
وَإِنّي لاَ أَزَالُ أَخَـا حُـرُوبٍ إِذَا لَمْ أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَـانِ

يقول أبو عطاء السندي:

ذَكَـرتُـك وَالخَـطِّيُّ يَـخْـطُر بيْنَنَا وقد نَهِلتْ مني المُثقَّفةُ السُّمْرُ
فَـوَاللهِ مَـا أَدْرِي وَإِنّي لَـصَـادقٌ أداءٌ عراني منْ حبابكِ أمْ سحْرُ
فَإِنْ كَان سحراً فاعذُريني علَى الهوَى وَإِنْ كَان دَاءً غَـيْرَهُ فلكِ العُذرُ

وفي مخاطبة العربي لامرأته، نراه يكنيها بخير الكني وعظيم الألقاب، تكريما لها وتفخيما لشأنها وتعظيما لقدرها، ومن ذلك قول حاتم الطائي يخاطب زوجه:

أيَـا ابْـنَةَ عَبدِ اللهِ وَابنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي البُرْدَيْنِ وَالْفرَسِ الْوَرْدِ
إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فالتَمِسِي لَهُ أَكِـيـلاً فَـإِنّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

وقول عمرو بن الأهتم:

ذَرِينِي فإنَّ الشُّـحَّ يَا أُمَّ هَيْثَمٍ لِصَـالِحِ أَخْـلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ[6]

وقال زيد الفوارس بن حصين بن ضرار:

أَقِلّي عليَّ اللَّوْمَ يا ابنَةَ مُنْذِرٍ ونَامِي فإنْ لَمْ تَشتَهي النَّوْمَ فاسْهَرِي

وعروة بن الورد يقول:

ذَرِينِي ونفسِي أُمَّ حَسَّانَ إنَّنِي بِـهَـا قَـبلَ ألا أملِكَ البيعَ مُشتَرِي

وقول شاعر آخر:

أمَّ الوَليد سَلَبْتِني حِلمي وَقَـتَـلْتِنِي فتَحلَلي إثْمِي
بِـاسه يَـا أمَّ الوَليد أمَا تَخْشَين فيَّ عواقبَ الظّلم

وفي هذا دليل على مكانة المرأة عند الشاعر الجاهلي، وقد بالغ الشاعر الجاهلي من تكريم العربي للمرأة فنراه يستهل قصائده بها، واصفا ما يعتريه من حبها وهجرها ووصالها، فهي دائما في عقله وشعوره ووجدانه لا تفارقه ولا تبرحه[7].

قد يتبادر إلى الذهن سؤال عن صلة النسيب بالحماسة، والصلة في رأيي وثيقة، فالحرب بكل ما يتعلق بها ميدان الحماسة والفروسية الحربية، والحب بكل ما يتعلق به ميدان الفورسية الخلقية السامية. فالمحب الفارس الذي يحارب ويخاطر بنفسه من أجل محبوبته تدفعه أخلاق الفارس من المروءة والنخوة والشجاعة إلى أن يرتفع بحبه عن الغايات الجسدية إلى غايات أسمى وأنقى.

فالفروسية تمثل لنا جانبين من جوانب الحياة الجاهلية؛ جانب الحرب، وجانب المثل العليا، لأنهما بناء واحد وروح واحدة، وإن ظهرت بمظهرين متلازمين وشكلين مترابطين، فشخصية الفارس البطل تملى عليه

أن يكون إنسانا ساميا في مثله إلى جانب بطولته، والحياة الجاهلية بطولة متصلة، وحماسة متشابكة، يكمل الجزء منها بقية الأجزا، وتجتمع الأسس ليقوم عليها البناء الشامخ الذي احتضن الفروسية بكل مفاهيمها ومعانيها.

ولقد تمثلت لنا هذه الفروسية بجانبيها: الخلقي والحربي في شعر الفرسان الذي طبع بطابعهم المتميز، فرسموا لنا أخلاقهم التي عاشوها، ومُثلهم التي سنوها، وقيمهم التي بذلوا دونها المهَج والأرواح، فاختلطت بطولاتهم الحربية بمكارم أخلاقهم . ومثلهم التي تجاوزت الحروب إلى مناحي الحياة[8]. وذهب بعض الباحثين إلى أن أبا تمام عمد إلى أن يجعل هذا الباب رابع أبواب الكتاب ليريح قارئه من عناء الفكر الجاد الذي يقتضيه تأمل الأبواب الثلاثة السابقة، ولتهيئة العناء المطلوب في تأمل الأبواب[9].

وقد يكون لهذا الرأي وجاهته؛ إلا أننا نرى أن أبا تمام قد جاء بالنسيب بعد باب الأدب ليعطينا صورة صادقة وكاملة لشخصية الإنسان العربي بكل ما تحمله كلمة إنسان من معان وقيم. ففي باب الأدب صورة لرجاحة عقل العربي، ونفاذ فكره، وبصارة بصيرته، وخلاصة تجربته، وفي باب النسيب صورة لرقة قلبه وشعوره وإحساسه، هذه الصورة المتكاملة لشخصية الإنسان العربي، هي التي جعلت أبا تمام يحرص في حماستيه على إبراز هذه الصورة، وإذا كان العربي يحمل بين جنبيه في الحروب قلبا أشدّ صلابة من الصخر، فقد كان يحمل بين جنبيه– أيضا– قلبا أرقُّ من الماء، وألطف من الهواء، يفيض بالرحمة والحنان، فتراه يحنو على ذوي الأرحام والأهل والإخوان والجيران والضيفان واللهفان، ويرق أمام لوعة الحب وسطوة الهوى وشدة الوجد.

هذه القيم الخُلقية التي امتزجت بلحم العربي ودمه، وسرت في عروقه هي التي وصلت بين أبواب الحماسية وموضوعاتها وتطالعنا هذا القيم في نسيب الشعراء ويقول ابن الدمينة في حياء المحب:

وإنّي لأسْتَحْيِيكِ حتَّى كأنَّما عليَّ بظهر الغيب منكِ رقيبُ

ويقول الشاعر في حفظ العهود والمواثيق وإن بعد المحب ونأى الحبيب:

أَسِــجْنَاً وَقَيْداً وَاشْتِيَاقَاً وَغُرْبَةً وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ

وَإِنَّ امْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِـثْلِ هَذَا إِنَّهُ لَكَرِيمُ

إلى غير ذلك من القيم الخلقية والمشاعر الإنسانية النبيلة، والعواطف الصادقة المعممة بلهيب الحب ولوعة الهوى.

وهكذا فإنّ هذه المعاني الجليلة والقيم النبيلة تعدّ مكوّنا مهمّا، من مكونات شعر الحماسية لا يمكن تغييبه أو التقليل من شأنه، بل لعل هذه المعاني هي التي حفزت الشعراء على التفنن في الصياغة لإخراج معيار جمالي، سعيا إلى إمالة النفوس نحوها وعطف القلوب عليها وتحبيب الناس فيها[10].

على أنّه قد يكون لشعر الحماسة قيمة أخرى تتّصل بما فيه من بعد تاريخي توثيقيّ، إذ قد كان مجالا سجّل من خلاله الشعراء كثيرا من الوقائع والأيام، وأبرزوا على واجهة التاريخ قادة عسكريّين أفذاذا لم تكترث بهم كتب التاريخ التي كثيرا ما تنسب الانتصارات في الحروب إلى الأمراء والحكام والخلفاء

وتتناسى دور القادة الميدانيّين، وهذا البعد واضح من خلال حضور القرائن الزمنية وأسماء الأعلام والأماكن.

وكذلك إذا أردنا أن نؤرخ للصلات الأسرية كصلة الأرحام، والعلاقة من الآباء والأبناء، والانتماء للأهل والعشيرة، والولاء القبلي، وتعدد الطبقات وجدنا في مختارات الحماسية ينبوعا ثريا ورافدا أصيلا يغذي هذا الجانب، بل جوانب الحياة الاجتماعية كلها، ومن هنا تبرز قيمتها التاريخية.

وكما كانت الحماسية تاريخا للحياة الاجتماعية كانت تاريخا- أيضا- للحياة الحربية، وأيام العرب ووقائعهم، ومن ذلك قول أبي الغول الطَّهَوِيّ في يوم " **الوقبى**" وكان بين بكر ومازن[11]:

فَـدَتْ نَـفْسِ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي فَـوَارِسَ صَدَّقَتْ فِيهِمْ ظُنُونِي
فَـوَارِسَ لاَ يَـمَـلُّونَ الـمنَايَا إذا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزَّبُونِ
وَلاَ يَـجَـزُونَ مِنْ حَسَنٍ بِسَيْءٍ وَلاَ يَـجـزُونَ مِـنْ غِلَظٍ بِلِينِ
وَلاَ تَـبْـلَى بَـسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ صلُوا بِالْحَرْبِ حِيناً بَعْدَ حِينِ

وقول امرأة بني شيبان في يوم "عين أباغ ":

وَقَـالُوا ماجِداً مِنْكُمْ قَتَلْنا كذَاكَ الرُّمْحُ يَكْلَفُ بالكَرِيمِ
بِعَيْن أُباغَ قاسَمْنا المَنايا فكانَ قَسِيمُها خَيرَ الْقَسيمِ

وقول جعفر بن علبة الحارثي في يوم يوم " سحبل ":

أَلَـهْـفي بِقُرَّيَ سَحْبَلٍ حِينَ أَحْبلَتْ عَـلَـيْنا الْوَلايَا وَالْعَدُوُّ المُباسِلُ
فَـقَـالُـوا لَـنَا ثِنْتَانِ لاَ بُدَّ مِنْهُما صُدُورُ رِماحٍ أَشْرِعَتْ أَوْ سَلاَسِلُ
فَـقُـلْـنَـا لَهُـمْ: تِلكُمْ إذاً بَعْدَ كَرَّةٍ ثُـغَـادِرُ صَرْعَى نَوْؤُها مُتَخاذِلُ
لَهُمْ صدْرُ سَيْفِي يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلٍ وَلِي مِنْهُ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَنَامِلُ

وقول عمرو بن مخلاة الكلابي في يوم " **مرج راهط** " وكان بين المروانية والزبيرية:

وَيَـوْمٍ تَـرَى الـرّاياتِ فيه كأنَّها حَـوَائِـمُ طَيْرٍ مُسْتَدِيرٌ وواقعُ
مَـضَى أَرْبَـعٌ بَـعد اللّقاءِ وأَربعٌ وَبِـالمرج باقٍ من دم القَوم نافِعُ
طَـعَـنَّا زِياداً في اسْته وهو مُدْبِرٌ وَثَـورٌ أَصابَتْه السُّيوفُ القواطعُ
وَقَدْ شَهِد الصَّفَّين عمرُو بنُ مُحرِزٍ فَضَاقَ عليه المَرجُ والمرجُ واسعُ

وقول سُلَيْمان بن قَتَّة العَدَوِي في يوم " الطف ":

مـرَرْتُ على أبْياتِ آل محمدٍ فَـلَـمْ أَرَهَـا أَمْثالَها يومَ حُلَّتِ
فَـلَا يُـبْـعِدِ الله الدِّيارَ وأَهْلَها وإنْ أَصْبَحَتْ مِن أَهْلِها قد تَخَلَّتِ
أَلاَ قَتْلَى الـطَّفِّ مِن آلِ هاشِمٍ أَذَلَّـتْ رِقَـاباً مِن قريشٍ فَذَلَّتِ
وَكَانُوا غِياثاً، ثم أَضْحَوْا رَزِيَّةً لَـقَـدْ عَظُمَتْ تلكَ الرَّزايا وجَلّتِ
فَمَا حَفِظُوا قُرْبَى النَّبِيِّ وحَقَّهُ لَقَدْ عَمِيَتْ عن ذاكَ مِنْه وصَمَّتِ

وقول قتيلة بنت النضر بن الحارث في مقتل أبيها يوم بدر:

أمُـــحَـــمَّدٌ ولأنْت ضِنْءُ نَجيبَةٍ مِنْ قَوْمِها والْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

مَـــا كَانَ ضَرَّكَ لوْ مَنَنْتَ ورُبَّمَا مَنَّ الْفَتَى وهْوَ الْمَغيظُ الْمُحْنَقُ

وَالنَّضْر أَقْرَبُ مَنْ أَصَبْتَ وَسِيلةً وأَحَـــقُّـــهُمْ إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ[12]

وكان مقتل النضر بن الحارس يوم مرجع النبي (صلى الله عليه وسلم) من بدر، فقد أمر عليا أن يضرب عنقه صبرا، فلما عرضت قتيلة للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يطوف بالبيت وأنشدته هذا الشعر قال: "لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته"[13].

وهكذا كانت الحماسية تاريخا للحروب والوقائع والأحداث التي شهدتها الحياة العربية، كما كانت تريخا وسجلا لأدوات القتل وآلات الحرب، فضلا عن قيم الفروسية التي تحلى بها العربي، ومن هنا تكتسب الحماسية قيمتها التاريخية. وكما كانت الحماسة تاريخا للحياة الاجتماعية والحربية كانت– أيضا – تاريخا للحياة الخلقية من كرم وشجاعة ومروءة ونجدة وحرية وإباء وحلم ووفاء وعفة وحياء وما يقابلها من بخل وجبن وغدر...، وهي أضداد لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، وبهذا تتجلى لنا قيمة الحماسية التاريخية [14]. وتتمثل قيمة الحماسية التاريخية في تصويرها الجوانب النفسية للعربي صاحب النخوة والغيرة والحمية، الذي ينفعل بسرعة، وتثور ثائرته، وتنفجر براكين مشاعره وأحاسيسه، ويتجاوب حسّه مع أجواء العالم المحيط به وواقعه الذي يحياه، فإذا به يندفع اندفاع السيل دفاعا عن الشرف والعرض والأرض والحمى، ويهب كالريح وبحماسة منقطعه النظير لحماية القيم الأخلاقية والإنسانية التي تمثل روحه وحياته، وقوته وغذاءه، والتي يحيا بها ولها ويضحي بنفسه في سبيلها.

وكأني بأبي تمام في حماستيه هذه أراد أن يؤرخ لعالم الشعور والوجدان العربي الثائر الهادر، والعواطف الصادقة الوامقة.

وإلى جانب ما ذكرنا تأتي أهمية الحماسية وقيمتها التاريخية في كونها مصدرا من مصادر الشعر الجاهلي، وإذا كانت الحماسية ليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام، ولا رواية أخذت بها عن أبي تمام، وإنما أخذها أبو تمام من الكتب، وانتقاها من الدواوين والمجاميع، لم يقرأها على أحد، ولم يقرأها عليه أحد مما أفقدها ركن الرواية والإسناد؛ فإن مدونات الشعر الجاهلي التي اعتمد عليها أبو تمام قد انتقلت من القرن الأول الهجري إلى القرن الثاني الهجري على يد الطبقة الأولى من الرواة العلماء، وأن بعضها ربما كتب منذ صدر الإسلام، وبذلك يكون التدوين في الصحف المتفرقة وفي الدواوين المجموعة رافدا كبيرا يساير الرافد الآخر . وهو الرواية الشفهية . ويعاصره، ولا يقل عنه قيمة، وهما معا يكونان هذا الجدول العظيم الذي نسمية: الرواية الأدبية، من هنا كانت مختارات الحماسية من المختارات الموثوق برواتها. هذا فضلا عن كون أبي تمام كان راوية للأدب، مما جعل العلماء والنقاد يجمعون على الثقة في روايته[15].

المبحث الثالث: القيمة الفنية للحماسية:

تتمثل قيمة الحماسية الفنية، في البعد الفني الذي قامت عليه في انتقائها واختيار مقطوعاتها، ويتمثل هذا البعد الفني في كون اختيارات الحماسية اختيارات شاعر ذواقة، عالم بالشعر، بصير به، يحسن بالجيد منه ويحياه أكثر من غيره، ولذا وجدنا مختاراته تستحوذ على إعجاب العلماء فتمثلوا أشعارها في شواهدهم البلاغية والنحوية واللغوية. ومن معايير الاختيار عند أبي تمام:

1-الجمال الفني. 2- التصوير البياني. 3- التركيب النحوي. 4-المعنى اللغوي.

فلقد استشهد بأبياتها القاضي البلاقاني في كتابه "إعجاز القرآن" في حديثه عن البديع، ومن ذلك قوله في المطابقة: "ومما قيل فيه ثلاثة تطبيقات قول رجل من بلعنبر:

يَجْـزُونَ مِــنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَاناً

وقوله: ومن بديع الاستعارة قول تأبط شرا[16]:

فَخَالَطَ سَهْلَ الأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصَّفَا بِهِ كَــدْحَةً وَالْـمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ

كما استشهد بأبياتها على المماثلة، والمقابلة، والمساواة، ومراعاة النظير، وصحة التقسيم، والسلب والإيجاب، والإعتراض، والرجوع.وعرج على أبياتها أئمة النحو وعلماؤه فاستشهدوا بأبياتها في مختلف قواعدهم[17].

وإذا كان أبو تمام قد وسّع في دائرة اختياراته، فاختار لشعراء العصور التي سبقته، فضلا عن عصره؛ فإن الكثرة الكاثرة جاءت لشعراء ما قبل الإسلام وبعده، ومن هنا كانت أهمية الحماسية لدى علماء اللغة الذين توخوا في أعمالهم شعر عهود الاحتجاج، فالشعر في عصوره الأولى أعرق في العروبة، وكتب اللغة وأصولها أحق به وأولى. وقد وجد علماء اللغة في ألفاظها مادة خصبة لفهم معانيها وتقريرها، وتصويب ما وقع فيه بعض العلماء من أغلاط في استعمال الألفاظ اللغوية ومعانيها. ومن ذلك ما أخذه على بن حمرة في كتابه "التنبيهات" على أبي العباس المبرد في تفسير قول الشاعر[18]:

أَلَسْتُ أَردُّ القِرنَ يَركبُ رَدْعَه وَفِيهِ سِنانٌ ذُو غِرَارَيْنِ يَابِسُ

فإنما اشتقاقه من السهم يقال: ارتدع السهم إذا رجع متأخراً، ويقال: ركب البعير ردعه إذا سقط، فدخل عنقه في جوفه، والكلام مشتق بعضه من بعض، ومبين بعضه بعضاً، وليس الردع هنا مما ذكر، وإنما هو من التضمخ بالزعفران والخلوق وما أشبههما، ولذلك سميت ضواحي الإنسان المرادع، وقال ابن دريد في الجمهرة : يقال: ركب ردعه: إذا جرح فسقط في دمه، وأما الذي ذكره في السهم فمأخوذ من ضرب الحداد رؤوس المسامير[19].

وتتمثل قيمة الحماسية الفنية في كونها تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك متنوعة الأغراض، كما يمدنا التبريزي في شرحه عليها بمجموعة أخرى كبيرة، تجعل من هذا المصدر مصدرا أساسيا لشعر الصعاليك. وإلى جانب الشعراء الصعاليك يأتي اختيار أبي تمام للشعراء المقلين والمجهولين، . وشعر المقلين أولى أن يكون أكثر صقلا وتهذيبا، وأقل شعثا وفضولا، ثم إن شعر المكثرين قد علمه الناس أو

كثير منهم، فلا خوف عليه أن يضيع مع الزمن، وقد جزى به أصحابه سهرة ورزقا حسنا، فما أحوج شعر المقلين إلى من ينشره ويذيعه، ما أحوج أصحابه أن ينصفوا به ويكافئوا عليه، ولا أحسب أن التعريف بهم والاختيار لهم يقعان عن هوى ومحاباة، ولولا اختيار أبي تمام لشعر المقلين والمجهولين لما وقف العلماء والنقاد والدارسون عليه، وهذا ما جعل **للحماسية قيمة فنية** دون غيرها، فضلا عما ينطوي عليه من الجودة فنية.

وتتجلى قيمة الحماسية الفنية أيضاً: في انصاف أبي تمام لغيره من الشعراء الذين اختار لهم مع مخالفتهم لطريقته الشعرية، وهذا ما أكده الدكتور/ إحسان عباس في قوله: من يقارن بين هذه المختارات التي تضمنتها دفتا ديوان الحماسة، وبين أشعار أبي تمام التي نظمها بنفسه، يستطيع أن يلاحظ أنه استطاع أن يتجاوز طريقته الشعرية، وما تميزت به من طلب للصور، ومن إغراب في توليد المعاني، واستغلال الذكاء الواعي، إلى شعر يتميز بالبساطة وشيء غير قليل من العفوية، والصدق العاطفي المباشر، وهو في اختياراته هذه يعتمد على ذوقه الخاص، وبذلك كان البون بعيدًا حقًا بين اختيار أبي تمام في حماسته وبين طريقته الشعرية"[20].

وهذا الذي قال به الدكتور إحسان عباس قد نوه له الإمام المرزوقي في مقدمة شرحه للحماسة حين ذكر "أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير ويقول ما يقول من الشعر بشهوته، والفرق بين ما يشتهي وبين ما يستجاد ظاهر بدلالة أن العارف بالبز قد يشتهي لبس ما لا يستجيده، ويستجيد مالا يشتهي لبسه"[21].

ومن مقياس الجودة عند أبي تمام: 1- تجنبه للمستنكر الوحشي من الألفاظ. 2- والبعد عن الغريب والركيك من المعنى. 3- البعد عن المبتذل والعامي من الألفاظ، واختياره الأجود من القول.

وقد أشاد الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن " بصنيع أبي تمام في حماسيته وذلك في قوله: "والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب "الحماسة"، وما اختاره من "الوحشيات"، وذلك أنه تنكب المستنكر الوحشي والمبتذل العامي وأتى بالواسطة"[22].

وقد كان لهذا المسلك الفني أثره في قيمة الحماسية الفنية، ومن هنا كانت الحماسية بمثابة عالم شعري آخر أضافه أبو تمام إلى عالمه الشعري الذي أبدعه. فلقد جمع عالم الشعر الحماسي بين المتعة والفائدة، فتحققت فيه الفائدة الممتعة المفيدة. وتتمثل القيمة للحماسة في جمالها الفني الذي جعل أبا تمام يختار من القصيدة أجود وأجمل ما فيها ويترك بعضها الآخر، ويعتمد هذا الجمال الفني للأشعار المختارة على الأصول الفنية التراثية، لجماليات القصيدة العربية التي تتمثل في عمود الشعر العربي الذي بينه "المرزوقي" في مقدمة شرحه للحماسية وهو: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما[23].

وهذه المقاييس الجمالية التي استخلصها واستنبطها "المرزوقي" من خلال دراسته لشعر الحماسية واستقرائة الشعر العربي، هي التي أكسبت الحماسية قيمتها الفنية، وجعلتها تحظى بإيجاب وإجماع النقاد على ما صحب أبا تمام فيها من توفيق، مما يدفعنا إلى قوم بأن هذه الاختيارات كانت تنبئ عن المستوى الفنّي الذي يريد أبو تمام أن يكون عليه الشعر الجيد. ومن القيم الفنية للحماسية التي حلقت بها في آفاق الشهرة جيشانها بالمعاني الأخلاقية والإنسانية جيشانا من شأنه أن يحرك العقول والأفهام للتأمل والإفادة، والذي لا شك فيه أن هذه نظرة يعول عليها "أصحاب المعاني" الذين لم يكن لهم من وكد إلا أن يقفوا على المعنى الرونق في جزالة وعذوبة ، يلتمسون في مواطنه من الحكمة البارعة التي تتسم بالفضل والشرف والوضوح والكمال...، وهذه المعاني من الفنية بمكان، بحيث تتراءى على رحم ماسة بالأنساق البلاغية، وتعول على دواعيها من قرب المأتى أو بعده متى اقتضى المقام ذلك[24].

وكأني بأبي تمام أراد أن يؤصل لنظرية شعرية جديدة تقوم على: شرف المعنى ونبله وجودته دون إهمال للفظ وقيمته، وخير دليل على هذا قصيدة المقنع الكندي التي يقول في أبياتها:

وَإنّ الَّـــذِي بَـيْنِي وَبَـــيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَـــيْـــنَ بَـنِي عَمّي لَمُخْتَلِفٌ جِدّا

فَـــإنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمُو ... إنْ هَـــدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْداً

وَإنْ ضَيَّعُوا غَيْبَي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمُو ... إنْ هُـــمْ هَوُوا غَيّي هَوِيتُ لَهُمْ رَشْداً

وَإنْ زَجَـــرُوا طَيْراً بنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَـــرْتُ لَهُـــمْ طَـيْراً تمُرُّ بهِمْ سَعْدا

وَلَا أَحْـــمِـــلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عليهمُ ... وَلَيْس رَئِيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدا

لَـــهُمْ جُلُّ مالِي إنْ تَتابِعَ لِي غنىً ... وَإنْ قَـــلَّ مَـــالِي لَـــمْ أُكَلِّفْهُمُ رِفْدا

وَإنّي لَـــعَـبْدُ الضَّيْفِ ما دام ثاوِياً ... وَمَـــا شِيَمةٌ لِي غَيْرَها تُشْبِه العَبْدا[25]

فالمعاني هنا شريفة صحيحة، والألفاظ واضحة فصيحة، والأنساق البلاغية تطل علينا من نوافذ حروفها وتراكيبها وروعة تصويرها، فأضافت على المعنى قوة وجمالا وروعة وبهاء وتأثيرا.

ويقوم مذهب أبي تمام في اللفظ والمعنى على اعتماد "المعنى غير المألوف، واستخدام الكلمة العربية بطريقة غير مألوفة، أي نقل اللفظ عن معناه المعروف.. وهو مذهب جديد مخالف للطريقة التقليدية في كتابة الشعر آنذاك. لكنه، إذا كان خروجاً على الطريقة، فهو ليس خروجاً على الشعر، بل إنه أفق شعري آخر"[26]. وعلى الرغم من مهاجمة النقاد مذهب أبي تمام في اللفظ والمعنى، نراهم، بالنسبة إلى المعنى، قد سلّموا له بالشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم، وهو لطيف المعاني.

أما فيما يخصّ اللفظ، فنرى الزمخشري يدعو إلى الاستشهاد بشعر أبي تمام نفسه، فيقول: "وهو، وإن كان محدثاً لا يُستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيتُ الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه"[27] ويذكر أن الزمخشري نفسه استشهد بشعر أبي تمام في الكشاف.

ومن القيم الفنية للحماسة أيضاً: صدق التجربة الشعرية في مختاراتها، ونعني به صدق شعراء الحماسية في التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم وخواطرهم التي تجيش بها نفوسهم، والتي يمتاطونها من عالمهم الشعوري والنفسي، وعالمهم الخارجي المحيط بهم بكل أحداثه وتطوراته وظواهره. وإذا كان صدق التجربة الشعرية لا يعني بالضرورة معاناة الشاعر للتجربة وخوض التجربة بنفسه حتي يصفها، فإن شعر الحماسية قد تحققت فيه معاناة الشاعر لتجربته في أبواب الحماسية كلها،

فقد عبَّر الشعراء بصدق عن عواطفهم ومشاعرهم الحماسية في أثناء حروبهم، وبعد الحروب في رثاء فرسانهم وأبطالهم، وكما صوروا لنا قوة دفاعهم للحرب، صوروا لنا قوة انفعالهم لطلب الثأر من أعدائهم، والانتقام من خصومهم. وكذالك عبروا بصدق عن مشاعرهم الصادقة وعواطفهم الملتهبة في حزنهم وغضبهم، وذوب وجدانهم في نسيبهم، ونسوة النفوس في كرمهم وجودهم وقرى ضيوفهم، وغرقهم ونجدتهم ومروءتهم ...، فجاء تعبيرهم ملائما للشعور والإحساس، ومن هنا كان ديوان الحماسة عالما عامرا بالمشاعر المتوهجة، فياضا بالواطف المتأججة، مثيرا لكوامن النفس ونوازع الوجدان، وفيما ذكرناه سابقا من أشعار غناء هنا عن التكرار.

ومن أهم عناصر التجربة الشعرية التي تحققت في شعر الحماسة وأضافت إليها قيمة فنية وبعدا جماليا إلى جانب القيم الفنية والجمالية الأخرى عنصر البناء الموسيقي، وأهم ما يميزه هو الوزن والقافية، فالوزن كما يقول ابن رشيق: أعظم أركان جد الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة. وتتجلى قيمة الوزن في ائتلافه مع اللفظ وائتلافه مع المعنى، بحيث لا يزيد اللفظ لاستقامة الوزن ولا ينقص وكذلك المعنى، فتمام الألفاظ والمعاني واستقامتها مع استقامة الوزن وعدم الإخلال به يسمو بالجانب الايقاعي في العمل الشعري ويزيده جمالا[28]. وباستقرائ لأشعار الحماسية نجد أوزانها قد جاءت من البحور ذات الهدير الموسيقى والجلجلة الصاخبة، ويتمثل هذا في بحر الطويل، والوافر، والكامل، والبسيط، وقد استقرقت هذه البحور معظم أشعار الحماسية، وقد شاعت هذه البحور في شعرنا العربي ونظم فيها أكثره.

ويقول الشاعر الحماسي جعفر بن علبة الحارثي من الطويل:

هَوايَ مع الرَّكْبِ اليَمانِينَ مُصْعِدٌ جَنِـــيبٌ وجُثْمانِي بمَكَّةَ مُوثَقُ

عَــجِبْتُ لِمَسْراها وأَنَّى تَخَلَّصَتْ إِليَّ، وبابُ السَّجْنِ دُونِي مُغْلَقُ

وقد وردت بقلة في الحماسة بحور: الهزج، والمديد، والرمل، والخفيف، والسريع، والمنسرح، والمتقارب، ولم نجد صدى لبحور: المضارع، والمقتضب، والمجتث، والمتدارك، والرجز، فالبحور الطوال وفي مقدمتها بحر الطويل الذي انتظم معظم أشعار الحماسية تتناسب وموضوعات الحماسية والانفعالات النفسية لشعرائها، لما فيها من قوة وفخامة ووصف وتأمل وطول نفس واستقصاء للموصوف، وقص وتفصيل، واستيعابها لنظرات الشعراء وتجاربهم في الحياة، وقوة انفعالهم وثورة مشاعرهم وفوران عواطفهم. فالعلاقة

بين المشاعر والأحاسيس، وبين الأوزان علاقة عضوية قوية، لما للأوزان الحماسية متناسقة متناغمة مع مشاعرهم وأغراضها، فجاءت أشعارها في صورة منظومة شعرية من أعذب الألحان ورائع النغم.

وما يقال عن الأوزان يقال عن القوافي، فالوزن والقافية صنوان متلازمان، وهما يمثلان الركن الأعظم في البناء الموسيقي في أشعار الحماسية، متلائما مع الوزن والغرض والشعور، ولذلك خلت الحماسية من روي: الثاء، والذال، والخاء، والطاء، والزاي، والواو، لعدم تناسبها مع المثلث المذكور. وقد أضفي هذا التناسب على أشعار الحماسية رونقا وجمالا، وأكسبت ديوان الحماسية قيمة فنية وجمالية ضمنت له الذيوع و البقاء. وقد حرص أبو تمام في الحماسة على إشاعة أصداء القوّة في مستوى الإيقاع الدّاخلي بما يتوسّل به من اختيارات لفظيّة توسع دائرة انتشار الأصوات الشديدة كما المفخّمة يقول أبو تمام:

فتًى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ والضَّرْب مِيتَةً تَــقُـــومُ مَقامَ النَّصْرِ إذْ فاتَهُ النَّصْرُ

ومَــا ماتَ حتّى مات مَضْرِبُ سَيْفِهِ مِن الضَّرْبِ واعْتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

فانظر كيف تتعاود الأصوات المفخّمة بشكل لافت في هذين البيتين **(الطَّعْنِ، الضَّرْب، النَّصْرِ، مَضْرِبُ، الضَّرْبِ)**، وتبرز قوّة الإيقاع أيضا من خلال الحضور المكثّف لظاهرة التضعيف في الكلام، أو لوسائل التأكيد. ومن القيم الصوتية التي يقوم عليها البناء الموسيقي، موسيقى الكلمة والأسلوب، فللكلمة وقعها وإيقاعها المؤثر في النص الشعري، ويزداد هذا التأثير بضمها واتساقها مع الكلمات الأخرى التي يتكون منها الأسلوب، وقد كان للحماسية الحظ الأوفر من هذه القيم الصوتية، وليس أدل على ذلك من قول الشاعر:

أَلَمَّتْ فَحَيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَــوَدَّعَتْ فَلمَّا تَوَلَّتْ كادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ

وقول الشاعر:

فَصَبْراً في مَجالِ المَوْتِ صَبْراً فَــمَــا نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطاعِ

وقول الشاعر[29] :

المَــانِعِينَ منَ الْخنا جَارَاتِهِمْ وَالْــحَــاشِــدِينَ على طَعامِ النَّازِلِ

وَالْــخَــالِطِينَ فَقيرَهُمْ بِغِنيّهِمْ وَالــبَــاذِلِــينَ عَطاءَهُم لِلسّائل

الضَّارِبِينَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ضَرْبَ المُهَجهجِ عِنْ حياض الآبل

وَالــقَائلُونَ فلاَ يُعابُ كلاَمُهُمْ يَــوْمَ المَــقامَةِ بِالْقَضاءِ الفَاصلِ

وقول الشاعر[30]:

دُمْ لِلْــخَــلِــيلِ بِــوُدِّهِ مَــا خَيرُ ودٍّ لاَ يدُومُ

وَاعْــرِفْ لِــجَارِكَ حَقَّهُ وَالْحَــقُّ يَعرِفُهُ الْكَرِيمُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ يَوماً سَوْف يَحْمَدُ أَوْ يَلوم

وَالنَّاسُ مُبْتَنِيانِ محْمُودُ الْــبِــنَايَةِ أو ذَمِيمُ

وَاعْــلَــمْ بُــنَيَّ فإنَّهُ بِــالْعِلْمِ يَنْتَفعُ الْعَليمُ

وقول الشاعر:

بِـــيْـضٌ مَفَارِقُنا تَغْلى مَراجِلُنَا نَـــأْسُـــوا بَأمْوالِنا آثَارَ أيْدِينَا

إنِي لَمنْ مَعْشَرٍ أفْنَى أوَائِلَهُمْ قِيْلُ الْكُماةِ ألاَ أيْنَ الْمُحامُونَا

وهكذا كانت القيم الصوتية بأبعادها الجمالية تمثل قيمة من قيم الحماسية الفنية، فضلا عن أنها تنم عن مدى الحس الموسيقي المرهف الذي كان يتمتع به أبو تمام.

ومن قيمة الحماسية الفنية أيضاً، أنها أول مجموعة من المختارات الشعرية التي تصنف فيها الأشعار تصنيفا موضوعيا، وهو تصنيف جذب إليه كثيرا من الشعراء والعلماء واللغويين فصنفوا حماسيات على غرار حماسة أبي تمام، فهناك حماسة البحتري، والخالدين، وأحمد بن فارس، وأبي العلاء المعري، والحماسة البصرية، والمغربية. كما عنى كثير من العلماء واللغويين بشرحها، وقد ذكر الأستاذان أحمد أمين، وعبد السلام هارون في مقدمة تحقيق شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ثلاثين شرحا لحماسة أبي تمام، وفي هذا دلالة على أهميتها الفنية وقيمتها الأدبية [31]. وإذا كانت القيمة الفنية للعمل الأدبي ترتبط كثيرا بالعوامل التاريخية والثقافية مما يجعلها تتفاوت قوة وضعفا بتفاوت تلك العوامل، فإن قيمة الحماسة الفنية تكمن في نصوصها وذاتها فضلا عن ارتباطها بتاريخ الأمة ولغتها وقيمها وأخلاقها وفنها الأعلى "الشعر"، وهذا هو سر بقائها وفرض وجودها على الساحة الأدبية والنقدية عبر العصور الأدبية.

للحماسية إذن قيمة فنية لا سبيل إلى إنكارها، لكن لا يمكن بأي حال من الأحوال التغافل عمّا لهذا الشعر من أهمية، إن في مستوى ما عبر عنه من معان جليلة، وإن في مستوى الوقائع التي نفض عنها غبار النسيان. والحقيقة أنّ هذه الأبعاد المختلفة تتكامل وتتفاعل وتتضافر، لتعطي لهذا الشعر تلك المكانة المميزة في الشعر العربي، وفي وجدان الجمهور وذائقته، وبذلك فإنّ تغييب جانب من هذه الجوانب لا يستقيم معرفيّا وأدبيّا، لأنّ الشعر العظيم هو ذلك الذي يحقق المعادلة الصعبة بين الفن والدّلالة والشكل والمضمون والجمال والفكرة.

الخاتمة:

حمدا لله، وصلاة وسلاما على رسول الله وبعد، فها أنا ذا أمسك بعنان القلم . بعد هذا التطواف والتحليق في أجواء التراث الأدبي ممثلا في حماسية أبي تمام .

والذي تنتهي إليه أنّ أهميّة شعر الحماسية تعود إلى ما توخاه الشعراء من ضروب التفنّن في الإيقاع والعبارة، كما تعود إلى ما احتفوا به من معاني الشجاعة والبطولة الحربية، وما عبّروا عنه من قيم إنسانية سامية، وأيضا إلى ما سجلوه من وقائع تاريخيّة ما تزال بفضل الشعر حيّة في الذاكرة الجماعيّة للعرب والمسلمين، ولما كان الشعر الحماسي هو جماع كل ذلك؛ فإنه يمكننا التساؤل لماذا ظلّ هذا الشعر حبيس الأغراض الكلاسيكيّة رغم اكتمال المقومات التي تؤهّله إلى أن يستقيم غرضا مستقلاّ بذاته.؟

وتعد الحماسية مصدرا أصيلا من مصادرا الشعر العربي بخاصة والتاريخ العربي بعامة.

وكما تتميز الحماسية بأنها رائدة في بابها، وحجة في أشعارها، وعمدة في قيمها اللغوية والبيانية والفنية والجمالية.

و بعد. فهذا جهد المقل حاولت من خلاله أن أقتحم عرين أبي تمام فقصر خطوى، وحق له ذلك فأين الثرى من الثريا؟! و الخليج من المحيط؟!

فإن كنت قد قصرت فلما ذكرت، وإن كنت قد وفقت فمن الله، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيت.

وصلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم.

الهوامش

(*)- انظر في ترجمته وأشعاره وأخباره: الأعلام للزركلي جـ:155/2، والأغاني للأصفهاني جـ17، أخبار أبي تمام للصولي، أبو تمام للجمال سلطان، نظرية الشعر عند أبي تمام رسالة دكتوراه جامعة مروا الكاميرون لأبو سليمانو، صـ:45

(1)- الفنّ ومذاهبه، صـ: 219 . ط: المكتبة الأزهرية للتراث الطبعة الأولى. بدون سنة الطبع.

(2)- أبوتمام وقضية التجديد في الشعر صـ:ـ 38.

(3)-أخبار أبي تمام صـــ: 197.

(4)-أيام العرب في الجاهلية، صـ:234

(5)-دراسة في حماسة أبي تمام، صـ:234

(6)-دراسة في حماسة أبي تمام، صـ:234، وانظر أيام العرب في الجاهلية، صـ:51

(7)-دراسة في حماسة أبي تمام، صـ:234

(8)-شرح ديوان الحماسة للتبريزي، صـ:345.

(9)- شرح حماسة أبي تمام، صـ:156.

(10)-حماسة أبي تمام و شروحها، ص:325.

(11)-حماسة أبي تمام و شروحها، ص:325.

(12)-دراسة في حماسة أبي تمام، صـ: 254.

(13)- العمدة لابن رشيق: 57/1

(14)-معالم الشعر و أعلامه في العصر العباس الأول، صـ:275.

(15)-القضايا الأدبية و الفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة، صـ:143.

(16)- إعجاز القرآن، للباقلاني، 234/1.

(17)- إعجاز القرآن، للباقلاني، 234/1.

(18)-الكامل في اللغة و الأدب (1/ 35)

(19)- المنقصوص والممدود والتنبيهات صـ:96، وانظر مجالس ثعلب:141/1.

(20)-شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها (صـ: 37)

(21)-المرجع السابق (صـ: 37)

(22)-إعجاز القرآن للباقلاني (صـ: 117)

(23)-شرح ديوان الحماسة، صـ: 45

(24)-القضايا الأدبية و الفنية في شرح المرزوقي لديوان الحماسة، صـ: 234.

(25)- ديوان الحماسة (صـ: 125)

(26)-نظرية المعنى، مصطفى ناصف، ص: 57 -58.

(27)- الكشاف للزمخشري:119/1.

(28)-في الشعر العباسي الرؤية و الفن، صـ:263.

(29)-شرح حماسة أبي تمام (2/ 290).

(30)- المرجع السابق (2/ 146)

(31)-أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، صـ:45.

Index des sources et références

1- Abu Tammâm Al-Taai, sa vie et sa poésie. Naguib Muhammad Al-Bihbiti - Al-Najah Press - Casablanca - 1983

2- Abu Tammâm et la question du renouveau de la poésie. Dr/ Abda Badawy - Le livre général égyptien de l'année 1985 après JC.

3- Nouvelles d'Abu Tammâm. Par Abou Bakr Al-Souli, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beyrouth, Liban: 1989.

4- Miracles du Coran. Par Al-Baquillani Abu Bakr - Édité par M. Ahmed Saqr. Dar Al Ma'arif - Egypte - Cinquième édition 1981.

5- AL-Hamassiya d'Abu Tammâm et ses explications. Écrit par Hussein Muhammad Naqsha - L'Organisation générale égyptienne du livre en 1987.
6- Histoire de la littérature arabe. Karl Brockelmann - traduit par Dr. Abdel Halim Al-Najjar et autres - Dar Al Ma'arif - Le Caire - Troisième édition..
7- L'histoire de la critique littéraire chez les Arabes (critique de la poésie du IIe au VIIIe siècle de l'Hégire) d. Ihssan Abbas - Edition Maison de la Culture - Beyrouth - deuxième édition 1978.
8- L'équilibre entre Abu Tammâm et Al-Buhtri. Pour le long terme - édition des aspects à Astana année 1287 AH.
9- Repères de la poésie dans la première ère Abbas. Dr. Muhammad Nabih Hijab - Maison du savoir en Egypte - Deuxième édition 1972.
10- Questions littéraires et artistiques dans l'explication de Marzouki sur Diwan al-Hamassiya. Dr. Fathi Muhammad Abu Issa - Dar Al Ma'arif - Egypte 1983.
11- Al-Umda, son étiquette et sa critique. Par Abu Ali al-Hasan bin Rashid al-Qayrawani - Édité par Muhammad Mohi al-Din Abd al-Hamid - Dar al-Jeel Beyrouth - Cinquième édition 1981
12- Poésie de guerre dans la littérature arabe aux époques omeyyade et abbasside d. Zaki El-Mahasni - Dar Al Ma'aref - Egypte - Deuxième édition.
13- Explications d'AL-Hamassiya d'Abu Tammâm. Dr. Muhammad Othman Ali - Première édition - Dar Al-Ouzai pour l'impression et l'édition - Beyrouth, Liban.
14- Explication du livre Al-Hamassya. Pour Abu Al-Qasim Zaid bin Ali Al-Farsi - Etude Dr. Muhammad Othman Ali - Première édition - Dar Al-Awraei pour l'impression et l'édition - Beyrouth.
15- Explication du Diwan d' AL-Hamassiya. Par Abu Ali Ahmed bin Muhammad bin Al-Hassan Al-Marzouki - Montage par Ahmed Amin - Abd Al-Salam Haroun - Deuxième édition 1967 AD - Comité des auteurs, de la traduction et de l'édition - Le Caire.
16- Explication du Diwan d'AL-Hamassiya Par Abu Zakaria Yahya bin Ali al-Tabrizi - Le monde des livres - Beyrouth.
17- Une étude sur AL-Hamassiya d'Abu Tammam. Écrit par Ali Najdi Nasif - Dar Al-Nahda Egypte pour l'impress